د/ حاج علي كمال

فلسفة الأخلاق:

لقد أقرّ المفكرون والباحثون، على مرّ التاريخ الإنساني، أن حياة المجتمعات الإنسانية لا تستقيم من غير القيم الأخلاقية، وذلك لأنها تشكل النسيج الحيوي لوجود الإنسان والمجتمع في آن واحد. ومن هذا المنطلق يمكن القول : إن غياب القيم الأخلاقية أو تدهورها يؤدي بالضرورة إلى تصدع المجتمع وانهياره وتداعيه. إذ لا يمكن أن تقوم للمجتمع قائمة، من غير القيم الأخلاقية، ومن غير الفضائل التي تضمن له التماسك والوحدة والقوة والانسجام.

مفهوم الأخلاق:

الأخلاق منظومة من القيم والمعايير السلوكية التي يرتضيها المجتمع لنفسه وأفراده نشدانا لفضائل الحق والخير والجمال، وهي من حيث وظيفتها توجه الأفراد إلى ما يجب عليهم القيام به وتنهى عما يجب تجنبه في مختلف المواقف الحياتية والإنسانية، وهي ترتكز في وظيفتها تلك إلى مجموعة من القيم الأخلاقية التي توجه السلوك الإنساني توجيها غائيا يتسم بالحكمة ويتشح بالفضيلة، فالأخلاق توجه الفرد إلى التمييز بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الخطأ والصحيح، كما بين ما هو محمود وما هو مذموم على وجه الإطلاق. والأخلاق تشكل منهجا وجدانيا ينير طريق الأفراد في المجتمع إلى صراط الحق والخير والجمال، وقد قيل في الأخلاق بأنها ” التحلي بالمليح والتخلي عن القبيح “، وغالبا ما يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة فالمحمود منها يعرف بالخير، والمذموم منها يعرف بالشر، حيث تشكل مسألة الخير والشر المحور الأساسي لعلم الأخلاق برمته. فالأخلاق تعني الالتزام بالقيم والمبادئ الأخلاقية التي توجه الإنسان نحو الخير والفضيلة وتحول بينه وبين الشر، وترمز إلى انتصار الجوانب الايجابية في الإنسان طلبا للكمال وتحقيقا للغايات السامية في الحياة، إنها نوع من الوعي بما ينبغي وبما يجب التماسا للجمال الأخلاقي والكمال الروحي.

يُعرّف الفَلاسفة الأخلاق على أنّها دراسة معياريّة للخير والشر تهتمّ بالقيم المُثلى، وتصلُ بالإنسان إلى الارتقاء عن السلوك الغريزي بمحض إرادته الحرة.

توظف الثقافة الغربية أربع كلمات متداخلة للإشارة إلى مفهوم الأخلاق Morale:، Ethique، Déontologie، Axiologie ويصعب الفصل بين دلالة هذه الكلمات التي تترادف وتتداخل وتتقاطع بصورة مستمرة للتعبير عن الأخلاق كنظام أو علم أو فلسفة. ويبلغ هذا التداخل أشدّه بين كلمتي Ethique et Morale وهما مفهومان مترادفان في مستوى الاشتقاق متداخلان في الدلالة والمعنى.

اشتقت لفظة الأخلاق « Morale » من الأصل اللاتيني Moralis.، وتشير الكلمتان إلى الأخلاق والآداب والقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع بصورة عامة. أما لفظة Ethique فهي مشتقة من اللفظة الإغريقية Ethikos ويقابلها في اللاتينية Ethica, وتعني أيضا في استخداماتها العامة النظام الأخلاقي المعياري لجماعة أو مجتمع محدد، حيث يعمل هذا النظام الأخلاقي على توجيه سلوك الأفراد نحو الفضيلة والحق والخير والواجب والقيم الأخلاقية بصورة عامة. وقد استخدم مفهوم Ethique لأول مرة في اللغة الفرنسية في القرن الثالث عشر بمعنى الأخلاق والآداب. وفيما يتعلق بمفهوم Morale فإن أول استخدام له في الفرنسة كان في عام 1530.

وتتداخل لفظة Ethique تداخلا كبيرا مع كلمة [Morale](http://fr.wikipedia.org/wiki/Morale)، حتى أنه يصعب الفصل بينهما، ويجري استخدام كل منهما مكان الآخر بالتتابع والتقاطع والترادف بصورة متواترة. ففي اللغة العادية تعدّ كلمة  Morale مرادفا طبيعيا لكلمة Ethique، وتشير كل منهما إلى الطريقة التي يعيش فيها الناس وفقا للقيم والمبادئ الأخلاقية طلبا للخير وتجنبا للشر. ولكن بعض العلماء يميزون بين الكلمتين تمييزا واضح المعالم حيث يوظفون كلمة Morale للتعبير عن نسق القيم والمعايير والمبادئ الأخلاقية التي توجه سلوك الفرد والجماعة، أي أخلاق المجتمع والجماعة والفرد. أما كلمة Ethique فتوظف للدلالة على النظرية الأخلاقية أو الفلسفة الأخلاقية السائدة في المجتمع. وغالبا ما توظف كلمة Ethique للتعبير عن نمط نقدي في التفكير الأخلاقي الذي يتجه نحو تقييم السلوك الأخلاقي وشروطه الحيوية في مجتمع ما. وهذا يعني أن كلمة Ethique ترمز إلى نوع من التفكير النقدي في النظام الأخلاقي وفي تجلياته المختلفة، بينما توظف كلمة Morale للدلالة على الأخلاق بوصفها نظاما من المبادئ والقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع؛ وتوظف كلمة Ethique للدلالة على النظريات الأخلاقية أو المباحث الأخلاقية، وأحيانا علم الأخلاق، أي إلى نمط من النشاطات الفكرية التي تمارس وظيفة التقصي الفكري والنقدي في ميدان الأخلاق بصورة عامة.

وغالبا ما يستخدم الفلاسفة الأمريكيون الكلمتين بمعنى واحد دون تمييز بينهما، وذلك على خلاف المفكرين الأوروبيين الذين يوظفون الكلمتين توظيفا متباينا. ووفقا لذلك فإن ريكو Ricoeur يستخدم كلمة Ethique للتعبير عن المضامين الفكرية للأخلاق والقانون الأخلاقي، في حين يستخدم كلمة Morale للدلالة على نسق القيم والمعايير الأخلاقية، وهذا يعني أن كلمة Morale ترمز إلى نسق المعايير والمبادئ والقواعد الأخلاقية التي تفرض نفسها على سلوك الأفراد في المجتمع، والتي تتمحور حول مبدأي الخير والشر. وبالمقابل فإن كلمة Ethique تتضمن بعدا إضافيا تأمليا يتمثل في تمكين الفرد من تقييم الفعل الأخلاقي وتحديد مساراته واتجاهاته بطريقة نقدية. وهذا يعني أن الانتقال من دلالة كلمة Morale إلى دلالة كلمة Ethique يعني الانتقال من العام إلى الخاص ومن الكلي إلى الجزئي. و يميز موريو Meirieu في هذا الصدد بين الكلمتين، فيرى أن كلمة Ethique ترمز إلى دراسة السلوك الأخلاقي عند الأفراد، أما كلمة Morale فتعني نظاما من المعايير والقيم والمبادئ الأخلاقية التي تنظم سلوك الأفراد في المجتمع.

ويعد مفهوم “الأكسيولوجيا” (Axiologie science et théorie des valeurs) أكثر وضوحا من المفاهيم الثلاثة السابقة حيث بدأ استخدامه مع بدايات الفلسفة اليونانية خصوصا عند سقراط وأفلاطون و أرسطو. ويعود هذا المصطلح إلى الأصل الإغريقي Axia ou Axios ويعني في الأصل علم القيم الأخلاقية، وفي الفلسفة يعني مبحث نظرية القيم . وكان هارتمان [Eduard von Hartmann](http://fr.wikipedia.org/wiki/Eduard_von_Hartmann) أول من استخدم هذا المفهوم في كتابه المعروف L’Axiologie et ses divisions ومن ثم استخدمه بول لابي [Paul Lapie](http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Paul_Lapie&action=edit&redlink=1) في بداية القرن العشرين في كتابه منطق الإرادة Logique de la volonté.

الأخلاق في الفكر الفلسفي اليوناني:

إن هناك تداخلا بين المبحث الأخلاقي لأفلاطون مع أبحاثة في النفس الإنـسانية ، فالنفس هي جوهر روحاني بسيط من عالم المثل وقائم بذاته ومستقل عن البدن وموجود قبلـه ، وهـذه النفس هي علة حركة الجسم.

قبل أن نشير إلى نقد أفلاطون الموجه إلى السفسطائية ضمن الجانب الأخلاقي، نـذكر صـورة موجزة عن النظرية الأخلاقية لدى السفسطائية . إذ نادى السفسطائيون في مجال الأخلاق بما نادوا بـه في مجال الفلسفة وقالوا : إن الأخلاق اعتبارات شخصية ، وإن الخير هو ما أريد والشر ما لا أريد أن أفعله، فالأخلاق بهذا تكون نسبية من وجهة نظر الأفراد، كما أنها تتغير من جيل إلى آخر. والفضيلة عند السفسطائيين تعني أداء الوظيفة بنجاح وكفاية ففـضيلة الطبيـب هـي معالجـة المرضى، وفضيلة المدرب هي تدريب الخيول وقد ذهب بعض رجال السفـسطائية المتطـرفين ـ إذا جاز التعبيرـ إلى إن القوانين والقواعد الأخلاقية هي في البدء من وضع الضعفاء وان لكل إنـسان أن يعقل ما يقوى عليه وهي شر، والطبيعة هي الخير. والسير على الطبيعة ه و الأسـاس وذلـك لان النجاح في الحياة هو نفسه اكبر درجة من الظلم.

ويذهب السفسطائي إلى القول بان ما يبدو لي انه حق فهو حق بالنسبة لي ، وما يبدو لي انـه صواب فهو صواب بالنسبة لي ، وما يبدوا لك على انه صواب فهو صواب بالنسبة لك ، وهذا يعنـي إن الصواب أو الخير بالنسبة إلى كل إنسان هو أن يفعل ما يلذ له أو ما يحلو له ويروقـه أي إن الفـضيلة هي لذة الفرد وخير تعبير على ذلك المعنى هو قول (بروتاغوراس) بان " الإنسان مقياس كل شي" أي انه هو الـذي يقرر صحة الشيء من بطلانه بما يتراءى له من انه صواب أو خطاً.

وقد رأى أفلاطون إن القول بان الفضيلة هي اللذة يحمل أثاراً مدمرة على ميـدان الأخـلاق فهو يهدم الأخلاق من أساسها ويمكن أن نوجز الحجج التي فند فيها دعاوى السفسطائيين بما يلي: ١ - إن نظرية السفسطائيين عن الحقيقة قد هدمت الحقيقة وجعلها ذاتية نسبية ، فكذلك نظـرت هم في إن الفضيلة هي لذة الفرد بدورها تهدم موضوعية الأخلاق وتجعلها ذاتية نسبية ، فـلا شـر وخير في ذاته في هذه الحالة ، بل ستكون الأشياء جميعا خير بالنسبة لي أولك أو لأي شـخص أخر والنتيجة الطبيعية هي ظهور النسبية المطلقـة فـي ميـدان الأخـلاق وافتقـار المعيـار الموضوعي للخير.

-الواقع إن نظرية السفسطائيي ن هذه تهدم التفرقة بين الخير والشر ، إذ طالما إن الخير هو مـا يلذ للفرد وطالما إن لذة فرد ما قد تكون أ لماً أو شراً لشخص أخر فان الفعل الواحد قـد يكـون خيراً وشراً في نفس الوقت ، وخيراً بالنسبة لشخص ما وشراً بالن سبة لـشخص مـا ، والخيـر والشر هنا لا يتميز كل منها عن الأخر بل هما شىء واحد.

ومن هنا رفض أفلاطون الأخلاقية السفسطائية باعتبارها نسبية ك ما أنها لا تعطي اسـتقلالية ذاتية للفعل الخلقي من خير أو شر و بالتالي رفض ان الفضيلة هي اللذة.

وعليه تتمثّل الأخلاق عند أفلاطون في كبح شهوات الإنسان، والتّسامي فوق مطالب الجسد بالالتفات إلى النفس والروح وتوجيههما لتحصيل الخير والمعرفة ومحاربة الجهل.  
أرسطو: يرى أنّ الأخلاق مُرتبطة بسعادة الإنسان التي هي غاية وجوده، فيعرّفها على أنها الأفعال الناتجة عن العقل، من أجل الخير الأسمى؛ السعادة.

وفي منظور آخر يرى المفكر الإغريقي “ارستيب” بأن اللذة هي صوت الطبيعة، وأن الغريزة هي المحرك الأول لأفعال الإنسان، فجعل اللذة معيارا للفعل الأخلاقي وتجسيدا للخير الأعظم، فالطبيعة البشرية التي تنجذب بصورة تلقائية وعفوية إزاء ما يحقق لها متعة الحياة، وتنفر في المقابل من كل ما يهدد أو يقلل من هذه المتعة. ولأن ارستيب قد بالغ في تعظيم اللذة الحسية فإن أتباعه من الإبيقوريين طورا نظريته حياة وميزوا بين اللذات الجسدية وبين اللذات العقلية والروحية فأعلوا من شأن الأخيرة.

وهذا هو الاتجاه الذي تبناه ابيقور (Epicure) 341-270 ق م الذي اتفق مع سلفه بتعظيم اللذة كمبدأ للخير، ولكنه أعطى لهذه النظرية طابعا أخلاقيا جديدا يتصف بالحنكة والذكاء، فاللذة كما يرها هي الخير الأعظم إذا كانت عواقبها خيرا، ووفقا لذلك نادي بضرورة اجتناب اللذات التي تجر وراءها آلاما والآلام التي لا تعقبها لذة، ورفع شعاره المعروف ” خذ اللذة التي لا يعقبها الألم و اجتنب الألم الذي لا يستقيم مع اللذة، أي تجنب اللذة التي تحرمك من لذة أعظم منها و تقبل الألم الذي يخلصك من ألم أعظم منه. ومن هذا المنطلق الفلسفي ارتقى مفهوم الخير لديه وتجلى في قيم الصداقة و الحكمة ووفقا لهذه الحكمة رفع شعار اللذات العقلية والروحية والاعتدال في تحقيق اللذات الجسدية. وهذا الاتجاه نجده عند الرواقيين Les stoicims الذين رفعوا اللذة إلى مستوياتها الروحية العليا، حيث لا يمكن أن تتحقق السعادة إلا إذا عاش الفرد على وفاق مع الطبيعة. وباختصار فإن الخير هنا يقاس بمدى ما يحققه من لذات عقلية وروحية وجسدية ووفقا لهذا المعيار فإن الخير يتجلى في اللذة التي يحققها أبدا.

وذهب المعتزلة إلى الاعتقاد بأن الفعل يمتلك من الصفات ما يجعله خيرا أو شريرا، فالفعل الخيّر كالجوهرة فيه من الصفات الموضوعية ما يجعله خيرا بذاته. فالعقل يستحسن الخير وينادي به ويستهجن الشر ويرفضه، ولكن الاشاعرة رفضوا دعوى المعتزلة واعتقدوا أن الحسن والقبيح شرعيان وليسا عقليان، وهذا يعني أن الخير تحدده الشرائع والأديان وليس العقل المحض عند الإنسان.

**الأخلاق في الفكر الفلسفي المعاصر:**

ذهب فولتير في تصنيفه للفعل الخيّر، فالخير يعرف بداهة ولا يختلف فيه اثنان مهما اختلف الزمان والمكان فالراعي التتري والصباغ الهندي والبحار الإنجليزي يتفقون على أن العدل خير والظلم شر، وهذا يعني وفقا لفولتير أن في فعل العدل من الصفات ما يجعله خيرا بشكل موضوعي وثابت ومطلق.

يشكل مفهوم الواجب قطب الرحى في المسألة الأخلاقية ويؤسس لجوهر التفكير الفلسفي في المجال الأخلاقي. فالواجب نداء الضمير ووظيفته الأساسية وهو يمارس وظيفة القسر والإلزام في مجال الحياة الأخلاقية سواء أكان هذا الإلزام داخليا نابعا من الذات، أو خارجيا تفرضه الحياة الاجتماعية بما تنطوي عليه من معايير أخلاقية. فالواجب يأخذ صورة إلزام أو التزام يؤديه حتى وإن تعارض مع مصلحته الشخصية وميوله الطبيعية.

 ويعد كانط أبرز المفكرين الذين رسخوا مفهوم الواجب وأصلوه في الفكر الأخلاقي. فالواجب يأخذ مكانا مركزيا في أعمال كانط الأخلاقية ويشكل حجر الزاوية في نظريته الأخلاقية. فالحياة الأخلاقية تخضع لمطالب الواجب وضرورته الكونية، والواجب ينطلق من أعماق الحياة الوجدانية للفرد التي تستظل بمعاني الحرية والاستقلال. ويترتب على الإنسان الأخلاقي وفقا لهذه الرؤية أن يمارس الفعل الأخلاقي على صورة الواجب الذي يتميز بعقلانيته وشموله وكونيته، حتى وإن تعارضت متطلبات هذا الواجب مع مقتضيات الميول والرغبات الذاتية لدى الفرد. وتستمد هذه النظرية مشروعيتها من مشروعية العقل الكوني للإنسانية حيث يتوجب احترام القانون الأخلاقي الذي يحكم الجميع ليتمكن الفرد من العيش المشترك مع الآخرين في وئام وسلام تحت مظلة المساواة والقانون. فالعقل الكوني يشكل مصدر الواجب والحياة الأخلاقية برمتها. ويشترط كانط في الواجب أن يكون مجردا من كل غاية نفعية أو ذاتية.

ويميز كانط في هذا السياق بين الأوامر الشرطية والأوامر الأخلاقية القطعية الغائية التي يفرضها الواجب. فالأمر الأخلاقي الذي يصدر عن الواجب يكون غائيا كليا ذاتيا حرا لا يتوخى نفعا أو يجاري مصلحة ذاتية. أما الأوامر الشرطية فتتمثل في القيام بالفعل لخير مطلوب (غاية ). وعلى خلاف ذلك تأخذ الأوامر القطعية صيغة القيام بالفعل لغاية ذاتية مطلقة (الحق من أجل الحق) وهو وحده فعل الأخلاقي مثل التاجر الذي يستقيم مع زبائنه يفعل ذلك طبقا للواجب , ولكنه بدافع المنفعة لا الواجب , والإرادة الخيرة تعمل بدافع الواجب لا طبقا للواجب , ولهذا سميت أخلاق كانط بأخلاق الواجب.

فالأوامر الشرطية فهي أوامر تفرضها تعاملات الناس في حياتهم اليومية. فعندما يتجنب المرء السرقة خوفا من السجن، والإسراف في الطعام خوفا من المرض، وعندما يجتهد أملا في النجاح، ويزور الآخرين طلبا للاحترام، ويمارس الرياضة طمعا بصحة جيدة، فإنه يؤدي واجبات أخلاقية نفعية وشرطية وليست في مقام الأوامر والإلزامات الأخلاقية التي يفرضها الواجب كواجب أخلاقي مطلق، ومثال ذلك، افعل الخير دائما وأبدا لأنه خير، كن صادقا واصدق دائما أبدا حبا بالصدق، لا تكذب خوفا من العقاب بل لا تكذب لأن الكذب حرام بالمطلق. اجتهد حبا بالاجتهاد لأن الاجتهاد واجب، وساعد الآخرين ليس طمعا في أمر آخر غير القيمة ألأخلاقية لواجب الخير المطلق. وقد أسس كانط ثلاثة قواعد أساسية لممارسة الواجب الأخلاقي:

1-قاعة الكلية: ” اعمل دائما بحيث تستطيع أن تجعل من قاعدة فعلك قانونا كليا شبيها بقانون الطبيعة”. أي قانونا يشمل سائر الناس دون استثناء.

2- قاعدة الغائية: اعمل دائما بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أشخاص الآخرين دائما كغاية لا كوسيلة”.

3- قاعة الإرادة: “اعمل دائما بحيث تستطيع أن تجعل من إرادتك الإرادة الكلية المشرعة للقانون الأخلاقي “.

وتلك هي القواعد التي تعكس سمو الواجب الأخلاقي الذي لا يمكن أن نخفضه إلى مجرد واجب اجتماعي قل هو واجب لكل الكائنات العمالقة تمثلا للقانون لا أكبر. ويتضح هنا أن كانط قد شرّع قوانين شمولية تمتد لتشمل الإنسان كمفهوم، أي الإنسان في صيغته المطلقة، وهو في صوغه لهذه القوانين يركز على العقل والإرادة بوصفهما من طبيعة كونية.

إن كانط يناقض فكرة اللذة على نحو كلي، إذ يرى وجوب تنزيه مبدأ الخير عن أي غرض ذاتي أو لذة، فالخير هو الواجب المطلق الذي ينفلت من عقال الزمان والمكان ويقرض على الإنسان أن يسعى إليه لأنه خير يفرضه الواجب المطلق. ففي الحالة التي يقول فيها الإنسان الصدق لغاية -كأن يقول الصدق ليكسب احترام الآخرين – لا يكون الفعل أخلاقيا وخيّرا لأنه مرتبط بغرض، أما عندما يصدق الإنسان – لأن الصدق ضرورة أخلاقية وواجب أخلاقي مطلق – يكون الصدق هنا فعلا أخلاقيا خيرا ونبيلا. فالخير يكمن في الواجب، والواجب الأخلاقي هو الخير المطلق، وفي هذا الأمر يعلن كانط “بأن الأخلاق لا تعلمنا كيف نكون سعداء بل تعلمنا كيف نكون جديرين بالسعادة “، وهذا يعني أن الخير يكمن فيما يجب وليس فيما يحققه من سعادة، وهذا ينقض نظرية المنفعة واللذة الأخلاقية.

كانط: ارتبطت الأخلاق عند كانط بالإرادة النّابعة من عقل الإنسان الواعي، لا من رغبته، ورأى أنّ التمسّك بالأخلاق وفعل الصواب واجب أخلاقي. جان جاك روسو: يُعرّف الأخلاق على أنها الأحاسيس الطبيعية؛ التي تجعلنا نميّز بين الخير والشر ونتفادى ما يُلحق الأذى بنا وبالآخرين، ونميلُ إلى ما يعود علينا والمجتمع بالنفع، وهي ما تُميّزنا عن باقي الكائنات الحيوانيّة.

أما زعماء النزعة الطبيعية، فيرون أن الخير ينبع من الطبيعة ويتجلى في عطاءاتها. وهذا ما كان يذهب إليه كونفوشيوس وابن طفيل وجان جاك روسو. فالخير وفقا لهذا الاتجاه يكمن في الطبيعة فالطبيعة هي الخير والمطلق والسير بمقتضى الطبيعية هو السير على صراط الواجب. وكان روسو يعتقد أن كل ما يخرج من بين يدي الإنسان خير وكل شيء يفسد بين يدي الإنسان. فالطبيعة هي الخير وهي غايته في الآن الواحد.

نيتشه: من رأي نيتشه إنّ الأخلاق يجب أن تكون نابعةً من الإنسان نفسه، فعلى كل فردٍ أن يبني عالمه الأخلاقي الخاص، الذي لا يعتمد على العقل وحده ، إنما يُمثّل الإنسان كلّه بنقائصه وانفعالاته قبل حكمته.